

أربع شخصيات تتسامر في قارب صغير يجرفه التيار

نداء الحب والعدالة والتسامح في رواية «المايسترو» لسعد القرش

سمية عزام
كاتبة لبنانية

صدرت عن دار العين، رواية «المايسترو» للروائي المصري سعد القرش، وهي الرواية السادسة له بعد «حديث الجنود» و«باب السفينة» وثلاثية «أول النهار» و«ليل أوزير» و«وشم وحيد». وأبرز ما يعالج فيها من قضايا، قضيتا الاغتراق والطبقية، وإن لم يهمل مسائل دقيقة في المعتقدات والميتافيزيقيا والعلاقات العسفية.

فعلى قارب فقير يجرفه التيار نحو بخت يتعلّق في مياه الخليج، شخصيات أربع من جنسيات ومعتقدات مختلفة تتسامر في الحب، وتجاوز في شؤون الحياة وتفسيرات دينية لها، كاسرة تابو خشية من الآخر، تارة يعلو صوت المرح وقارة أخرى تشقّ صمت الليل ضحكة ساخرة، تتجاوب مع أصوات بعيدة تصدر من البخوت الراسية. لعل القارب بشخصياته المتعددة في ثقافتها وجنسيتها، يرمز إلى العالم، إلى الهمّ الإنساني المشترك. الخادم الهندي الطرود «لليل» ولد في بلاد غربية عن الهند، والعالم التبتّي «تسو» يؤمن بتكرار الحياة وتناسخ الأرواح، وقد خرب عادات الهند بفعل التهجير القسري بعد الاحتلال الصيني لبلاده، والفنان التشكيلي «نواف» ابن البلد المهتمّ ومقوص الجنسية، والمحامي المصري المتأمر «مصطفى»، منفتح عقدياً وثقافياً، بعصاه ونظارته يحاكي المايسترو، يضبط إيقاع الأحاديث.

كل منهم يحمل بلاده في قلبه وأساه على ظهر هذا القارب، كما لديه قصة يخبرها، لاسيما قصة الحب الرئيسية بين مصطفى ولورا، وهي أستاذة في قسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة ميشيغان. ومغامرة نواف النسائية المنقوصة كهويته ورجولته في هولندا، وقد جعلته يكتشف «أن ميراث القهر يتجسد في لحظة، وينزع عنه رجولته، رحلة منحنه خبرات ووعيا رج يعنف ما تربى عليه، وزلزلت يقينه، وما كان له أن يفهم أن أرض الله واسعة إلا بالخروج من بلاده». وقصة تسو والحلم في العودة لتولي منصب روعي في العهبة المقدسة، يسردونها في دعة ظاهرة، وغضب يتعاطف ضد «حيثان المال»، بانتظار من يعلن تغيراً يخرج بالعباد إلى النهار...

تبدأ الرواية بمشهد ملتبس يقترّب من السورالية، بلغته الواصفة، إزاء المحمول الواقعي للأحداث. هو بمثابة إرهاب بصري، تختتم بالمشهد غير المكتمل نفسه، والمفتوح على الاحتمالات

تبدأ الرواية بمشهد ملتبس يقترّب من السورالية، بلغته الواصفة، إزاء المحمول الواقعي للأحداث. هو بمثابة إرهاب بصري، تختتم بالمشهد غير المكتمل نفسه، والمفتوح على الاحتمالات، بدائرية بنساء، «يهبون من كل واد، ينتظرون أن يعلن أحدهم نفيها، أو

ترتفع في الأفق رابية». كما تُرصد حركة زهاب وإياب زماني؛ إذ أن أي موضوع للحوار بين الشخصيات الأربع على القارب يستدعي شيئاً من التكرار لكل منها، ففتناسل الأحاديث في دقق شبيه متصل، وفي تناوب بينها على الحكى، بحيث يقرب من حكايات ألف ليلة وليلة ومسامراتها. بل ثمة تماش في انتظار الصباح والخشية من مجهول ما قد يكون هلاكاً ممن هم «فوق»، في البخت الغارق في الظلام. يقول نواف «إن لدى هؤلاء الساحقين المخمورين أموالاً لا تنقص بدفع دياب ضحاياهم، ولديهم أيضاً فتاوى بالمقادير والأنصبة... حكمة ظلم لإيهاهه إلا العدل الإلهي». لعنا نجد ظلاً للبخت العملاق في جوف الليل في الصوت «موبى ديك، كونه مصدر قلق للمتسامرين في القارب الضئيل. وإذا تمظهر الصراع عتيفاً في مستوى الأفعال في الرواية - الملحمة الأميركية، فهو خفي، بقي في مستوى ملفوظات الحالة في الرواية المصرية، إلى حين إعلان مشهد الغضب.

في القصور يحدث ما لا يمكن أن يُعلن أو أن يجزؤ المرء على النوح به؛ فالألم يصنع كل شيء، والأسياذ غياب بغير تسمية، لكنهم شديد الحضور في جبروتهم. وثمة إشارات لمحة إلى قضايا الاتجار بالبشر، والشذوذ، والمثلية، والتحرش الجنسي بالأطفال. فقصّة

اختفاء الصبي البنغالي «مونيرول» ماثلة في أذهان الأجيال الهندية الوافدة، «مونيرول» أبوه ذهباً فداء لغيرهم ممن وعوا الدرس، فاحتوا الرؤوس، وتعادوا أن يظنوا إلى الإمام إلا خطوة واحدة». كما أن المصادفة قادت مصطفى إلى تادية دور الأعمى، «فيعاش رجلًا وامرأته، وينال أجرًا مثل أي داعٍ»، ويعود بالمال المثل بالخطايا، ليؤسس حياة أخرى، ويجسد حرجاً في الاعتراف بهذه الواقعة لزوجه لورا.

هذا المصري العابت الذي لا يخطئ ليوومه أو غده، يحيا على الحافة، بوصف نواف له، يجد في طريقه الافتراضي أميركية تطوف به التاريخ والجغرافيا، وتبشر خياله وعقله، وتدفعه إلى تغيير مسار حياته. في هذه العلاقة التي بدأت بمحادثات عبر الشاشة الزرقاء، دفعا للعلم، رسم المفهوم الذئبة في الحب من طريق العقل والثقافة نحو القلب، وتأكيد المفهوم الرجولة المرتبطة بالمعرفة تذبذباً للاستحقاق، لم يستفسر كثيرا عن أشياء، فينقص السؤال والجهل بثقافته من رجولته». يلقي مصطفى في لورا معنىً خاصاً جدا تجسد في امرأة، ويرى أحيانا أن لا فائدة ترجى من العبث

معها، إذ لا وفاء لها إلا لعقلها، فهتمل ما دونه، ويفصح عن تقويتها فضيلة القلق والاجتهاد لديه. وهي بدورها، تخففت بالحب من ثقل المعاجم وجفاف المناهج العلمية، «رددتني إلى الله فأحبته، وهو يحبني لأنه اصطفاك لي... أشهد أنني بُعثت».

في كل سلوك وحوار ثمة مفارقة وتعديل أو تفكيك لأنماط فكرية تلمطن لتصورات ترسبت. في علاقة مصطفى بلورا، يظن القارئ بداية أنها تلميح إلى نظرة استشراسة وباب لصراع ثقافي، شرق/غرب. إنما بمناسبة المآلات تنضح الرؤية حبال مسألة النظر من فوق، «في أميركا بشر مثلنا»، وأحيانا بنافسون الشرقي في الروحية. «جبران» قاد لورا في الصغر، ورسم لها حياتها، كما شرعت في البحث في التاريخ الإسلامي، مثلما جذب اعلام الشرق من المصوفاة بعض المفكرين إلى إعادة النظر في مسلماتهم الغربية. وهي لا تنفك تعقد مقارنة بين حبيبها مصطفى وبطل جبران خليل جبران «المصطفى» في كتابه «النبي»، وسرعان ما يشبهها بالإنسية مي زيادة منزلة في نفس جبران. هذه المناخات الصوفية تحكم الجو



لوحة الفنان سعد يكن

وهذا ما خبرته لورا مع أم مصطفى، «للعجين روح فلاح مهد الأرض، وزرع، وسقى، وحصد، وحمل القمح من الغيط، وغسله من الغبار وطحنه. وفي المطرحة الخشبية الناعمة روح من الخبز، ورائحة عرق نجار، صنع من الخشب مطارح، ومقاعد وأسرة». ذلك يتناغم مع رؤية الراهب البوذي الذي نقل الطبخ، من موقع الضجر إلى مرتبة الفن في السؤال الفلسفي المطروح عنواناً لكتاب: «كيف تطبخ حياتك».

أجواء سحر الشرق وعق التاريخ تجد أصداءها في الحضارة المصرية التي تمتاز بطابع روحي يلقي هوى في نفس لورا، بحكم بحثها في لوحات وجداريات تصور «بقرة حتحور» أو «الثور اليساري» بحسب تعبيرها، وعن أسرار الاستتار، والتخاطر عبر طاقات العين الثالثة، ومن خلفها الروائي في رصفه القصدي لمعارف تتعلق بمصر القديمة، لا تخلو من الذهنية وإن افاد من السياق العام للحوارات. فتنبها إلى سرقة الإغريق أسس علوم المصريين إبان غزو الإسكندر لمصر، وإلى الهداء أجداده المصريين إلى الجسد الأثري الذي يمكن صاحبه، من الإسراء إلى أقصى الأرض، ثم العودة إلى قريته، إلى جسده البشري.

النص كاملا على الموقع الإلكتروني

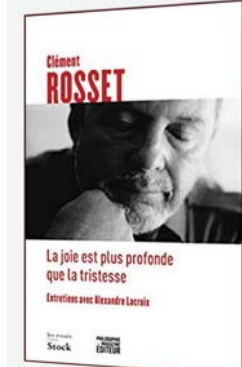
العام، فلا تجلّ علاقة الحب في بعدها الوجودي وحسب، بل هي قصص تمشّ جوهر الحياة واستخلاص المعنى الهادي للإنسان. فما يراه أحدهم أسطورة وتخريفًا تاريخيًا، لا يتنازل آخر عن الإيمان به بوصفه مسلمة؛ فالعقائد لا تناقض ولا تخضع للتجربة والعقل، منذ متى يناقش الآلهة؟ بتعبير تسو البوذي كافر بالله الأخر. بذلك يسرّب الراوي رؤيته الأيديولوجية حين يعلن أن «الحظة المساس بالعصب العنق للعقيدة، أو الاستهانة بأهله، لا يراعي شيئاً، ولا يبالي بأحد... تيار الغضب، حين يسري تلقائياً، يضئ مصباحاً أو يشعل حريقاً». حتى لكاتبه إبليس، بوصفه كائنًا مأساويًا ذاهباً إلى مصر قدر له أن ينتهي إليه، نصيب من الأناة في الحكم على منطق رفضه السجود لمخلوق توقعته الملائكة أن يفسد في الأرض، ويسفك الدماء. هي رؤية تنحو باتجاه تفكيك التعميمات والأحكام القارّة في أي مسألة، وتدعو إلى احترام الاختلاف، إلى فهم وتفهم منظورات أخرى، بغير شعور بالإحسان على أحد.

وفي مشهد شفيف نرى معنىً روحياً لطقس إعداد الخبز في اجتماع عناصر الطبيعة وتكاملها؛ فالخبز هو «العيش» ويتبع مراحل تجدر في الحياة وحبها.

الفرح ببلوغ الحكمة

جديد الفيلسوف الفرنسي الراحل كليمان روسي (1939-2018) كتاب بعنوان «الفرح أعمق من الحزن»، يضم ثمانية من جملة الحوارات الخمسة عشر التي أجراها معه ألكسندر لاروا، رئيس تحرير «مجلة الفلسفة»، ما بين 2006 و2017. ويكشف فيه القارئ نظرة روسي إلى مجموعة من الفلاسفة

أمثال أفلاطون، ونيقوش، وسبينوزا، وهايدغر، وبرغسون، مثلما يكتشف دفاع الرجل عن واقعية مطلقة، راديكالية، فلا شيء موجود في اعتقاده غير الواقع، وهو يقبل على هذا الواقع في شتى حالاته، حتى وصف بكونه فيلسوف الفرح والتراخيديا، دون أن يكون متشائماً. ومن أقواله الشهيرة: «كل شيء ضاع، لنفرض» أو «لنطمئن، كل شيء على غير ما يرام»، التي كان يطلقها كعلاج لهذه المرحلة المسكونة بالبحيرة والجزع، وينصح الإنسان بأن يبقى فرحاً رغم وضعه ككائن منذور للنساء، وأن يكون قادراً على معانقة وجوده بمرح ليبلغ مرتبة الحكمة والسعادة، وعلى استبعاد كل داع لليأس.

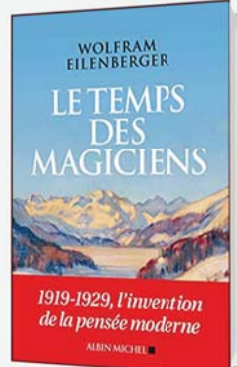


الرباعي المؤسس للفكر الفلسفي الحديث

في كتاب «عصر السحرة» يستعرض الألماني فولفرايميلنبرغر سيرة أربعة مفكرين هم لودفيغفغنتشتاين، ومارتن هايدغر، وإرنستكاسيرر، وفالتر بنيامين، مثلوا منعرجا في الفكر الغربي ما بين الحربين العالميتين، ما بين 1919 و1929 تحديداً، فقد عالجا، كل على طريقته، قضايا ساخنة في مرحلة بالغة التوتر، من نقد التكنولوجيا وأزمة الديمقراطية إلى الانتكاف الهوي والتعمية المستدامة، وتاولوها برؤية فلسفية جديدة وضعت أسس الفكر الغربي الحديث.

وقد تتبع الكاتب سيرة أولئك المفكرين العباقرة من النمسا والغابة السوداء إلى باريس وبرلين لمعرفة منطلقاتهم وطرائق تفكيرهم ومشاكلهم الوجودية، والوقوف على موقعهم من مجتمعاتهم في تلك الحقبة العسيرة، التي شهدت صعود الفاشية والنازية والأزمة الاقتصادية العالمية.

كتاب هامّ جمع بين الجغرافيا والتحليل الفلسفي وحاز عنه صاحبه جائزة الاتحاد الأوروبي.



التفاوت بين الأطفال

«طفولات الطبقة - في التفاوت بين الأطفال» كتاب جماعي أشرف عليه برنار لاهير، أستاذ علم الاجتماع بدار المعلمين العليا في ليون، يبين كيف أن البشر لا يولدون متساوين، ولئن تناولت الخطب العالمية والسياسية التفاوت الاجتماعي، مادياً وثقافياً، فإنها ظلت في الغالب مجردة. ومن ثمّ انكب هؤلاء الباحثون على توضيح واقع الأطفال وتقديم صورة جلية عن الفوارق الصارخة في ظروف عيشهم الملحمة، من خلال بحث ميداني ما بين 2014 و2018 في مختلف المدن الفرنسية، ودراسة أوضاع خمسة وثلاثين طفلاً ينتمون إلى شتى الطبقات الاجتماعية، الفقيرة والمتوسطة والعليا.

وقد تميز البحث بجذته سواء من جهة جهازه المنهجي، أو من جهة طرائق تحريره، ليرسم بورتريهاتسوسيوولوجية وتحليل نظرية؛ غايته فهم حقيقة لا تقبل الجدل وهو أن الأطفال يعيشون في اللحظة نفسها في مجتمع واحد، وليس في عالم واحد. وأثر ذلك التفاوت على مصير الأفراد الاجتماعي.

